قضية المرأة
في منظومة الفكر الباديسي

د. محمد بن سمينة*

المبحث الأول: المرأة في مرآة التاريخ

إن الحياة الإنسانية كسائر أنواع الحياة الأخرى تقوم على قانون الزوجية : الذكر والأنثى، الرجل والمرأة، يقول الله تعالى : ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلّكم تذكرون﴾ (١).

وتمثل الأسرة في هذه الحياة الإنسانية الخلية الأولى لبناء المجتمع، كما تمثل المرأة العمود الفقري في هيكل المجتمع لنهوضها بوظيفتها الطبيعية المزدوجة الأولى، الوظيفة التربوية (أمّاً) والوظيفة الاجتماعية (زوجة)، فهي (أم) تنهض بمهمة تربية الأولاد على مبادئ دينهم وتعاليمه وقيمه، تعلمهم مكارم الفضيلة وتحصنهم من أدران الرذيلة، وهي زوجة صالحة تقوم بشؤون زوجها، ترعى مصالحه و تحفظه في عرضه و في أولاده و في ماله، و تحرص على ما يريح باله و يسعد حاله، وتحقق له بذلك السكينة المنصوص عليها في القرآن الكريم، و بهذا يكون للمرأة المضطلعة بوظيفتها التربوية الاجتماعية، كما يكون للأسرة الراشدة، يكون لكليهما عظيم الأثر في تماسك بنيان المجتمع وفي تلاحم بنية الأمة و من ثم فإن من نهض بالمرأة و بالأسرة في ضوء قيم الأمة ومقوماتها، يكون قد نهض بأمته على المنهج السوي والصراط المستقيم، ومن قصَّر في القيام بهذا الواجب، فقد أخل بمسؤوليته نحو مجتمعه و نحو وطنه.

* جامعة الجزائر.

الأسرة المسلمة هدف قديم جديد لمخططات الغزاة :

كان الغزاة الأوروبيون وهم يجهزون جيوشهم لاحتلال بلاد المسلمين في العصر الحديث يدركون هذه الأهمية لما تنهض به الأسرة الرشيدة في تماسك صرح المجتمع؛ ولذلك كانت هذه الأسرة على رأس ما استهدفه أولئك الغزاة بالأمس في إطار هجمتهم التغريبية، وإن هذه الأسرة ذاتها هي اليوم في مقدمة ما يستهدفه أولئك الذين يقفون في الوقت الراهن وراء العولمة في توجهاتها الاجتماعية والثقافية .

ويدخل في إطار هذه الهجمة القديمة الجديدة ما يدور هذه الأيام من جدل ونقاش في أكثر من بلد من بلاد المسلمين حول جملة من القضايا الاجتماعية يأتي في مقدمتها : المنظومة التربوية (المناهج، المقاصد، والغايات) قانون الأسرة، الحقوق المزعومة للمرأة .

وينسى أولئك المروجون لهذه الدعاوى أن محاولات من سبقهم على هذا الطريق قد باءت بالفشل، وستبوء- بحول الله- بأسوأ من ذلك محاولات أخلافهم اليوم، وذلك بما جابهها وسيجابهها من المواقف المشرفة، والجهود المخلصة لأعلام الأمة مصلحين ومفكرين وأدباء، غيرة على الأسرة وذودا عن المجتمع ودفاعا عن الأمة، وكان ذلك بما غرس أولئك الأعلام في نفوس النشء من قيم ومكارم، وما نهضوا به في صفوف المجتمع من إرشاد وتوجيه، وما نشروه في أوساطها من وعي وعلم، وما رسموه أمامها من تطلعات وغايات .

وتود هذه الكلمة أن تقترب من جهود أحد أولئك الأعلام- الإمام ابن باديس- في هذا المضمار، وبخاصة ما يتصل من ذلك بقضايا المرأة والأسرة، للاستئناس بآراء الإمام في هذا المضمار، وهي مرجعية ذات مصداقية عالية لأبناء الأمة في هذا الباب .

الإسلام أول شريعة أعطت للمرأة حقوقها :

كانت الجاهليات الأولى (اليونانية والرومانية والعربية و غيرها)[٢] قد أهانت المرأة و ظلمتها وحرمتها من حريتها وحقوقها حتى جاء الإسلام، فقال للناس:

إن المرأة كالرجل ﴿وإذا المؤودة سئلت بأي ذنب قتلت﴾[٣] فكانت هذه هي أول دعوة في العالم اعترفت للمرأة بإنسانيتها و أهليتها و منحتها حريتها، وأعادت لها حق التصرف في جميع شؤونها .

و كان أول من صدَّق في التاريخ الإسلامي برسول الإسلام محمد صلى الله عليه

وسلم، وبرسالة الإسلام، امرأة هي السيدة خديجة بنت خويلد أم المؤمنين رضي الله عنها (٤).

ولما دخلت الأمة الإسلامية في عصر الضعف، وبدأ مد حضارتها في التراجع على إثر ضعف الروح الدينية في نفوس بعض أفرادها و تحجر العقل و انتشار الجهل، رجعت المرأة إلى بعض ما كانت عليه في الجاهلية الأولى، ثم جاء العصر الحديث، فوجد المسلمين يعيشون أوضاعا هي امتداد لما كانوا يعيشونه في أعقاب فترة القرون الأولى المشهود لها بالخيرية من نبيهم الصادق المصدَّق عليه صلاة الله وسلامه ، و كان من نتائج ذلك، أن سقط معظم البلاد الإسلامية تحت قبضة الاحتلال الغربي وشاءت الأقدار أن تكون الجزائر من بين شقيقاتها، الضحية الأولى لهذا الغزو، فظفر بها الاحتلال الفرنسي، وعمل من ضمن ما عمل على تكريس صورة ذاك التردي الذي هبط إليه المجتمع العربي الإسلامي يومئذ، فعاش المجتمع الجزائري طوال فترة الاحتلال الفرنسي في ظروف اجتماعية سيئة، وأخذت المرأة الجزائرية نصيبها من ذلك، و كان من أشد ما أصابها من ذلك و أضر بشخصيتها، ما لحق بها جراء الاحتلال من جهل بحقائق دينها وشؤون دنياها، و جمودها و انزوائها في جحر دارها بعيدة عن كل إسهام فاعل في سير الحياة العامة، فقعدت بذلك عن وظيفتها الأصلية بحسب ما تسمح لها به مواهبها وخصائصها المتميزة .

وظن بعض المتفرنجين لوقوعهم تحت تأثير الدعاية الأجنبية، أن العامل الرئيس في وضعية المرأة هذه، إنما هو الدين الإسلامي . و ما ذلك في الحقيقة بصحيح، و ما هو إلا محض افتراء و ضرب من البهتان، ذلك أن المرأة ـ كما سبقت الإشارة إلى ذلك ـ ما عرفت في التاريخ الإنساني دينا حررها من ربقة المهانة و الإذلال ومنحها من الحقوق و من أسباب التكريم مثل ما منحها الدين الإسلامي، هذه الشريعة الإنسانية السمحة العادلة التي ضمنت للمرأة حقوقها كاملة غير منقوصة في الملكية وفي الميراث، في العمل وفي تدبير شؤونها، وفي التصرف في أملاكها وفي أموالها .

وأما ما عليه المسلمون اليوم، من سوء المنقلب الذي هم فيه يتقلبون، إنما جاءهم ذلك من التخلف الحضاري العام الذي أصاب مجتمعهم في جميع مظاهر حياته، أثناء عصر التخلف والسقوط الحضاري ، و كان من نتائج ذلك أن غزاهم مع مطلع هذا العصر الاحتلال الغربي، فزاد أوضاعهم سوءا على سوء . فأخذت المرأة المسلمة في إطار هذا

التخلف الشامل نصيبها من ذلك، فحسب المستغربون أن ذلك إنما هو ظاهرة عامة في التاريخ الإسلامي وفي المجتمع الإسلامي ، وأن الدعوة إلى تحرير المرأة و إعطائها حقوقها لم يعرفها المسلمون إلا في هذا العصر بتأثير ما جاءت به المدنية الأوروبية من نظم و قوانين .

ويحضر في ذهن القارئ الكريم أمام هذه الدعاوى هذا السؤال: هل يمكن أن يكون هؤلاء المرجفون المستلبون يجهلون تلك الحقائق التاريخية أم أنهم كانوا يعرفونها، و لكنهم يعمدون إلى قلبها والتعتيم عليها خدمة لأغراض مرسومة وأهداف معلومة؟ و إذا لم يكن الأمر كذلك، فبم يمكن تفسير جهل أولئك المغرضين، أن أصحاب تلك المدنية التي هم بها منبهرون و لنظمها يروجون لم يعرفوا في تاريخهم تلك الحقوق المزعومة، ولم يسمعوا بها إلا بعد أن احتكوا بالمسلمين واقتبسوا تلك الأفكار النيرة من حضارتهم الرائدة في غير ما مكان و زمان ؟ ألم تكن المرأة عند أصحاب تلك المدنية الغربية، من قبل انبثاق فجر الدعوة الإسلامية تعيش مجردة من إنسانيتها مسلوبة الإرادة، محرومة من أبسط حقوقها في التصرف بشؤونها الخاصة، بل العامة ؟

الشريعة الإسلامية تكرم المرأة وتعيد لها إنسانيتها :

إذا، إن ما عرفه المجتمع الإسلامي في العصر الحاضر من دعوات تنادي بتحرير المرأة، إنما هو نتيجة الصحوة التي عرفها المسلمون في هذا العصر، على إثر ظهور الحركات الإصلاحية، في العالم العربي الإسلامي، فنقلهم ذلك من الأعصار المتأخرة المظلمة إلى عصر النور والتنوير، عصر ازدهار الحضارة العربية الإسلامية التالدة.

وكان أعلام تلك الحركة قد أدركوا عوامل تخلف المسلم، فعملوا على تخليصهم من ذلك، برسم الطريق أمامهم نحو الرجوع إلى ينابيع دينهم، يستمدون منها أسباب القوة والمنعة في قلوبهم وفي عقولهم، في أرواحهم و في أجسامهم، في العقيدة وفي الأخلاق، في الفكر و في العمل . فكانت قضية تربية المرأة وتعليمها والنهوض بها من بين القضايا التي عني بها المفكرون و الأدباء في العالم العربي الإسلامي (٥).

المبحث الثاني :

المرأة في الفكر العربي الحديث

سبقت الإشارة في الحلقة السالفة إلى أن المفكرين والأدباء في العالم الإسلامي قد أولوا عناية فائقة بقضية المرأة، وقد انقسمت آراؤهم حيال ذلك إلى فئات ثلاث :

١ ـ **منبهرون**: بالمدنية الغربية، منادون بتقليدها في كل شؤون الحياة، فقام هؤلاء بمطالبة المرأة المسلمة بتقليد المرأة الأوروبية في جميع مظاهر حياتها بتحريرها من كل ما يربطها بدينها وحضارتها، و من بين هؤلاء في مصر :

سلامة موسى (١٨٨٧ـ١٩٥٨)، **محمود عزمي** (١٨٨٩ـ١٩٥٤)، **ملك حفني ناصف** (١٨٨٦ـ١٩١٦)، **زينب فواز** (١٨٤٦ـ١٩١٤)، **قاسم أمين** (١٨٦٥ـ١٩٠٨)، وفي تونس: **الطاهر الحداد**، وأشباه هؤلاء، من بعض المتفرنجين في الجزائر [٦] .

٢ ـ **متزمتون جامدون** : ضيقوا الخناق على المرأة و حبسوها في عقر دارها بسبب جهلهم بحقيقة الدين الإسلامي و وقوعهم تحت تأثير بعض الأحاديث المكذوبة، [٧] فظلت المرأة سجينة الجهل والتقليد و الخرافات، و يمثل هؤلاء بعض الفقهاء المتزمتين و بعض المشعوذين الجامدين هنا و هناك، هؤلاء الذين بلغ بهم الجهل و التحجر و التزمت في هذا المجال و في غيره، أن أنكروا على المفكرين المنادين بتربية المرأة وتعليمها دعوتهم إلى ذلك، وتجاوزوا ذلك الإنكار إلى المناهضة والمخاصمة[٨] .

٣ ـ **معتدلون مستنيرون** : حز في نفوسهم ما يرون من آثار هذه الوضعية المهينة التي تعيشها المرأة في البلاد الإسلامية بين تطرف المستغربين في الدعوة إلى التحرر المطلق و بين غلو المتزمتين في الجنوح إلى السلبية و الانغلاق، فحاول هؤلاء المفكرون المعتدلون أمام ذلك أن يخففوا على المرأة من حدة هذه المعاناة، فعملوا على الأخذ بأيديها إلى ما دعا إليه الدين الإسلامي من وسطية و اعتدال، و ما منحها من حقوق و حريات، ففتحوا بذلك أمامها الطريق إلى النهوض بواجبها الاجتماعي و الإنساني، متحررة من كل مظاهر الظلم و التسلط، متمتعة بكامل حريتها المشروعة، و من بين هؤلاء المصلحين : **رفاعة الطهطاوي** صاحب كتاب (المرشد الأمين في تعليم البنات والبنين)، **شكيب أرسلان**، **محمد عبده**، **محمد رشيد رضا**، **قاسم أمين** صاحب كتابي (تحرير المرأة ١٩٨٩ـ المرأة الحديثة ١٩٠٠) **عبد القادر المغربي**، **مصطفى الغلابيني**، **مصطفى بن الخوجة**، **عبد القادر المجاوي**، **ابن باديس**، و غيرهم [٩].

ومما يحسن الإشارة إليه بهذا الصدد، وهذه الدراسة تنظر في هذا الموضوع من خلال آثار أحد الجزائريين، أن معظم المفكرين و الأدباء الجزائريين إنما هم من هذا التيار الثالث المعتدل المستنير .

المرأة في نتاج الجزائريين : و من ثم يمكن القول: إن الأدب العربي في الجزائر لم يعرف ما عرفه هذا الأدب في غيرها من بعض البلاد العربية حول قضية المرأة من صراعات و خصومات بين المؤيدين و المعارضين، بين المدافعين عن حقوق المرأة التي أعطاها لها الإسلام، و بين الناكرين ذلك على الإسلام، من غربيين متعصبين، و مستغربين مستلبين، و متزمتين جامدين .

ومما يمكن ملاحظته في هذا الباب أن العناية بقضية المرأة في الجزائر تعود إلى مرحلة النهضة (العشرينات من هذا القرن)، وبذلك يعتبر تناول هذه القضية متأخرا بمقارنته مع ظهور هذه العناية بها في المشرق (أواخر القرن التاسع عشر)، و يرجع هذا إلى أسباب موضوعية تعود إلى تأخر انطلاقة النهضة العامة في الجزائر عن مثيلاتها في المشرق . بيد أن هذا لا يعني أن الجزائر لم تعرف قبل هذه الفترة من لفت النظر إلى وضعية المرأة يومئذ فكتب في ذلك، كما يظهر ذلك في بعض الصحف الصادرة في مطلع هذا القرن[١٠]، و كما جاء في بعض كتابات الشيخ **عبد القادر المجاوي** في ما كتبه عن تعليم المرأة في شرحه على منظومة البدع لتلميذه الشيخ **المولود بن الموهوب** الموسوم بـ«اللمع على نظم البدع)»طبع بالجزائر (١٣٣٠ / ١٩١٢)[١١] .

وقد تزامنت مع ظهور هذه الكتابات الجادة المحققة بعض الأصوات الشاذة : فمن هؤلاء من أنكر لانغلاقهم و جمودهم، حق المرأة في التعليم، مستدلين على ذلك بحديث مكذوب، ومنهم من غالى في الدعوة إلى تحرير المرأة لوقوع أصحاب هذا الفريق تحت تأثير بعض الأفكار الغربية الهدامة، وهؤلاء على أية حال ليسوا بكتاب، و لا بشعراء، و إنما هم بعض الصحفيين من المتفرنجين الذين شدا بعضهم شيئا من الفرنسية فأوقعهم ذلك تحت دائرة التفرنج، فكتبوا شيئا في بعض الصحف عن المرأة، فغالوا في ما كتبوا . إلا أن هذه الكتابة ما كانت لترقى إلى مستوى النتاج الأدبي، لا من حيث طرق المعالجة، و لا من حيث الشكل، فجاءت بذلك من ناحية التحليل لا تتجاوز أن تكون بعض الكتابات الصحفية العادية و من حيث الصياغة لم تكن مكتوبة بالعربية أصلا، و إنما ظهرت باللغة الأجنبية (الفرنسية)، وهي وإن جاز من بعد ذلك، أن تندرج بهذه الخصائص ضمن النتاج الأدبي،

فإنه ليس من المنهجي أن تدمج حينئذ – وحالها على ذلك الحال– ضمن الأدب المكتوب بالفرنسية .

ولعل أول من عني بموضوع المرأة من بين الجزائريين هو الشيخ **محمد مصطفى بن الخوجة** :١٨٦٥-١٩١٧ الذي ألّف كتابين في ذلك هما : الاكتراث في حقوق الإناث [١٢] واللباب في أحكام الزينة و اللباس و الاحتجاب [١٣] وقد عني فيهما بتربية المرأة وتعليمها والنهوض بها .

ثم بدأت العناية بهذا الموضوع من بعد ذلك تزداد شيئا فشيئا مع بدايات النهضة الأدبية في مطلع العشرينات، و كان الاهتمام في هذه الفترة منصبا أساسا، على غاية مركزية واحدة، هي: «الدعوة إلى تربية المرأة و تعليمها». و لا يكاد الأدباء يتجاوزون في هذه المرحلة هذا المقصد إلى غيره، لما كان عليه المجتمع الجزائري يومئذ من محافظة شديدة ثم لم تلبث هذه النظرة إلى الموضوع أن توسعت في بداية الثلاثينات، فعرفت بذلك شيئا من عمق النظر و الواقعية في تناول جوانب القضية، كما يظهر ذلك في أعمال هؤلاء الكتاب: «**ابن باديس ، عبد الحفيظ بن الهاشمي، أبي اليقظان، محمد العيد، محمد الهادي السنوسي، صالح خبشاش ، رمضان حمود و غيرهم**». ثم استمرت الآراء تتطور و تتبلور حول هذه القضية، إلى أن بلغت الصورة التي بلغت إليها في أعقاب الحرب العالمية الثانية، كما يظهر ذلك في آثار الكاتب **أحمد رضا حوحو**، و من أبرز أعماله في هذا الباب: روايته «غادة أم القرى» ١٩٤٧.

وإننا إذا استثنينا ذلك الشذوذ الذي ظهر في تناول هذا الموضوع من بعض المتفرنجين و الجامدين، فإن معظم الأدباء الجزائريين قد وقفوا من موضوع المرأة موقفا معتدلا، و تناولوا جوانبه بنظرة موضوعية جادة، تتلاءم مع أهميته الاجتماعية و أبعاده الإنسانية .

ولعل من بين أبرز من عني بقضية المرأة عناية تستحق التنويه بها من الجزائريين، إبان مرحلة النهضة، إدراكا لفاعلية دورها، إيجابا و سلبا على المجتمع، هو الإمام **ابن باديس** الذي أبرز مكانتها في الحياة و دورها في المجتمع، فقد دعا إلى تحريرها مما يكبلها من قيود الجهل و التقليد، كما سهر على تربيتها وتعليمها و وقف في وجه المحاولات التي تعرقل مسيرتها، سواء منها تلك التي حرصت على إبقائها حبيسة الجهل و التقليد، أم تلك التي رمت بها إلى مخالب التفرنج و التغريب ؟

المبحث الثالث :

نظرة ابن باديس إلى المرأة من منظور الإسلام لها

دور المرأة أساسي في نهضة المسلمين:

إن الإمام **ابن باديس** لا ينطلق في نظرته إلى مكانة المرأة ودورها في الحياة، من تلك الحال التي تردى إليها وضعها في عصر السقوط، و إنما كان ينطلق في ذلك من منظور شريعة الإسلام التي حررتها مما كانت تعاني منه في الجاهليات الأولى من مهانة و ظلم و إذلال، و من هذه القناعة كان الكاتب يؤمن أن دور المرأة إنما هو مكمل لدور الرجل، ذلك أن الوحدة البشرية لا تكمل إلا بكمال الجنسين، فهي شقيقة الرجل في الخلقة و شريكته في الحياة، يشد الصلة بينهما قانون الزوجية العام الذي تخضع له سائر الكائنات الحية؛ ولذلك فإن الحياة الإنسانية بما فيها من نظام و عمران، لا يمكن أن يستقيم أمرها و يزدهر حالها، إلا على أساس من تضافر جهود الجنسين : المرأة و الرجل «**لا تقوم الحياة إلا على النوعين اللذين يتوقف العمران عليهما و هما الرجال و النساء**» (١٤).

ويتطرق الشيخ إلى الموضوع من زاوية أخرى، مؤكدا أن المسلمين لا يمكن أن ينهضوا بنهضة حقيقية إلا إذا شاركتهم النساء في ذلك في نطاق ما يحدد الشرع لهن من صون واحتشام وعدم اختلاط : «**فلن ينهض المسلمون نهضة حقيقية إسلامية إلا إذا شاركهم المسلمات في نهضتهم في نطاق عملهن الذي حدده الإسلام، و على ما فرضه عليهن من صون و احتشام**»(١٥).

وإذا كانت نهضة المسلمين لن تتحقق لهم من دون نسائهم، فإن الحياة الكريمة كذلك لن يظفروا بها إلا إذا كانت هذه الحياة قد مست قلوب وعقول مجموع أفرادهم نساء و رجالا(١٦).

العلاقة بين الرجل والمرأة علاقة تكامل وليست علاقة مساواة مطلقة :

وتوضح هذه النظرة الصائبة إلى العلاقة الحقيقية بين المرأة والرجل وتكامل دورهما في الحياة، هشاشة الأفكار الهدامة التي تنادي بالمساواة المطلقة بين الرجل والمرأة، وتكشف في الوقت ذاته سلبية أولئك الذين ينظرون إلى المرأة نظرة دونية و يذهبون إلى أفضلية الرجل عليها بمجرد أنه رجل، سيطر على المرأة وتحكم في شؤونها في مرحلة

زمنية اختلت فيها موازين الحكمة و اعتلّت فيها العقول و القلوب، فجهلت بعض النفوس المريضة ما بين وحدة العنصر البشري من تكامل، يبرز ظاهرة العدالة و المساواة بين الرجل والمرأة في التكاليف الشرعية و الكرامة الإنسانية و في الحقوق و الواجبات و يوضح ما يضطلع به كل منهما من مهام في الحياة العامة و الخاصة، بحسب ما جُبِل عليه من أصل الفطرة في تركيبته النفسية و الجسمية [١٧].

ذلك أن الله قد أعطى لكل منهما من تلك الخصائص ما يلائم ما يناط بكاهله من أعباء الحياة فقد ملأ الله قلب المرأة عطفا ورقة و حنانا لتتمكن من القيام بما يناسب طبيعتها من واجب الرعاية الأسرية: الحمل، الإنجاب، التربية.

وملأ قلب الرجل بالشعور بالمسؤولية و القوامة، و غرس في نفسه غريزة الحدب على شؤون الأسرة و الحرص على حمايتها و الدفاع عنها.

الحياة بين الجنسين قسمان : و قد ترتب على هذا التكوين الطبيعي الخاص بكل نوع من الجنسين أن قسمت الحياة الإنسانية إلى قسمين اثنين : قسم داخلي و قسم خارجي.

١ ـ القسم الداخلي : تنشط المرأة في هذا القسم بقيامها برعاية البيت و شؤون الأسرة و تربية الأولاد و العناية بالحقوق الزوجية، و قيامها إذا دعت الضرورة ببعض الأعمال الملائمة لطبيعتها كالتمريض و التعليم وما يضارعهما.

٢ ـ أما القسم الخارجي : فيتحرك في آفاقه الرجل، يكد و يجد، يسعى و يرتزق من أجل توفير أسباب العيش الكريم لمن يعولهم من أفراد أسرته.

و قد أعطى الله كلا من الرجل و المرأة من **«قوة العلم و قوة الإرادة و قوة العمل»** [١٨]، القدر الذي يكفيه للقيام بوظيفته في قسمه الخاص به، و يؤكد الإمام أن المرأة **«خلقت لقسم الحياة الداخلي»**؛ [١٩] ولذلك **« أعطيت من القوى الثلاث القدر الذي تحتاج إليه فيها، و هو دون ما يحتاج إليه الرجل الذي خلق للقيام بقسم الحياة الخارجي، فكانت بخلقتها أضعف منه في العلم و الإرادة و العمل، فكانت لذلك دونه في الكمال (....) ولو أعطيت المرأة مثلما أعطي لما صبرت على البقاء في قسمها، فأخلته فاختل النظام فحصل الفساد.»** [٢٠]

ويوضح هذا النص أن اقتحام المرأة لميدان الرجل إخراج لها من طبيعتها التي خلقت لها، و في هذا ما فيه من خطر على توازن شخصيتها و إخلال بوظيفتها الإنسانية التي خلقت لها و هي التربية و الرعاية الأسرية.

و إن هذا الإخلال يؤدي إلى حرمان الأولاد من العطف و الحب و الحنان، وغيرها من مشاعر الأمومة، التي لا يمكن أن يتلقاها الطفل على وجهها الأكمل، إلا من قلب أم حنون رؤوم، وهذا الإخلال بالوظيفة الأصلية للمرأة هو الذي أدى بالمرأة الأوروبية إلى وضعيتها الشاذة مما تسبب في اعتلال كيان المجتمع الغربي و اضطرابه و فساده [٢١].

تنوع وتكامل في الوظائف بين الجنسين :

وليس في هذا التنوع في الوظائف بين الجنسين، شيء من الصراع و التناقض، و إنما هو تكامل و تعاون فالمرأة أم الرجل وابنته و أخته و زوجته، و قد أمر الإسلام الرجال بالإحسان إلى النساء و الرفق بهن و أخذهن بالاعتدال في جميع الأحوال . و إن الشيخ؛ إذ يرى أن المرأة أضعف من الرجل في الخلقة و أن الرجل يفضلها و يتقدم عليها بما تميز به دونها من (قوة العقل و قوة البدن) [٢٢]، و هو لا يقول ذلك تخمينا، وإنما يقرر بذلك حقيقة قرآنية، و هي قوله تعالى ﴿**الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض**﴾[٢٣] . و ينبغي ألا يفهم من هذه الآية الكريمة، أن القرآن يحرم على النساء ما يمكن أن يقمن به إلى جانب الوظيفة الأسرية مما يلائم طبيعتهن من مشاركة الأزواج في بعض الأعمال العامة في نطاق ما حدده الشرع لهن في هذا المضمار «**من صون و عدم زينة و عدم اختلاط**»[٢٤] .

الوظيفة الطبيعية للمرأة تربوية اجتماعية :

يقرر الإمام في هذا المضمار أن المرأة لا تصلح للولاية [٢٥] لما ركبت عليه خلقتها النفسية من رقة و رأفة و عطف . و أن الوظيفة الطبيعية الاجتماعية لها، إنما هي «**القيام على مملكة البيت و تدبير شؤونه و حفظ النسل بالاعتناء بالحمل و الولادة و تربية الأولاد**»[٢٦] وإذن فإن الوظيفة الأساسية للمرأة في نظر الكاتب إنما هي بناء أسرة صالحة، و تربية أطفال و رعاية شؤون بيت، و قيام بحقوق الزوجية . و يؤكد بصفة خاصة على وظيفتين اثنتين يرى أنهما أساسيتان لعمل المرأة و هما تربية الأولاد و حفظ النسل، و يذكر أن الله قد خص المرأة من زاد الفضائل ما يساعدها على القيام «**بهذين الأمرين العظيمين**»،[٢٧] وهي إذ تقوم بذلك، إنما تقدم خدمة جليلة للأمة؛ إذ لا بقاء لأمة من الأمم إلا بانتظام أسرها و حفظ نسلها،[٢٨] ويبرز هذا أهمية الخدمة التي تقدمها المرأة للأمة بقيامها بهذه الوظيفة الأسرية .

و يعود الإمام ثانية إلى الحديث عن هذين الجانبين الأساسيين من جوانب مهام المرأة، و يعبر عن ذلك بصورة تكاد تنطق بما يريد أن يقوله، من أن ليس للمرأة من وظيفة أحسن من تلكما الوظيفتين «**خلقت لحفظ النسل و تربية الإنسان في أضعف أطواره**»(٢٩).

و يختار الإمام للتعبير عن إيمانه بهذه الحقيقة صيغة (الفعل الماضي) (خلقت) مبنياً للمجهول، ما يساعد على إعطاء هذه الدلالة بعدا قويا و حركة ضاغطة خارجة على نطاق الذات، ثم جاء من بعد صيغة البناء للمجهول تلك (بلام التعليل) للتأكيد على دلالة ثانية، و هي دلالة علة (الخلق) التي يحددها (لام التعليل) تقريرا لوظيفة المرأة و هي «**حفظ النسل وتربية الإنسان**»(٣٠).

و إن الشيخ إذ يركز على الدور الأسري للمرأة، فإنه يود بذلك أن يؤكد أن المهمة الرئيسة للمرأة، إنما هي الوظيفة التربوية الاجتماعية، و يلتقي الإمام في هذه النظرة مع معظم المفكرين المسلمين في هذا العصر، ولعل أقرب هؤلاء إليه في هذه القضية هو الإمام **محمد رشيد رضا** الذي يذهب أن الوظيفة المثلى للمرأة هي «**القيام بما خلقها الله لأجله حق القيام وميزها به على الرجل و هو أن تكون(زوجا) صالحة محصنة، و(أما) رؤوما مربية، و(رئيسة) منزل مقتصدة منظمة**» (٣١). و كان **ابن باديس** قد نشر للشيخ **رضا** نقلاً عن مجلته (المنار) سلسلة من المقالات في سبع حلقات تحت عنوان «**مناظرة في مساواة المرأة للرجل**».(٣٢)

ونستخلص مما تقدم أن موقف **ابن باديس** من دور المرأة في المجتمع كان معتدلا لانطلاقه فيه من التصور الإسلامي للموضوع، وقد تركز ذلك الموقف أساسا على الوظيفة التربوية الاجتماعية للمرأة في قسم الحياة الداخلي، مع إمكانية قيامها ببعض الأعمال الملائمة لطبيعتها - إن استدعت الظروف ذلك - في قسم الحياة الخارجي، في نطاق ما يقره الشرع في هذا المجال، و قد دفعه هذا الحديث عن خروج المرأة لبعض شؤونها إلى الحديث عما يتصل بذلك من قضية الحجاب والسفور، فكيف كان ينظر **ابن باديس** إلى ذلك ؟ وما هي مواصفاته لهذا و ذلك في نظره ؟

المبحث الرابع :

قضية الحجاب و السفور

لقد أسالت أقلام الباحثين مفكرين وأدباء في العالم الإسلامي– وما تزال – حبراً غير قليل حول قضية السفور والحجاب المتعلقة بالمرأة.

وإن الناظر في توجيهات الإسلام في هذا الباب يدرك أن الإسلام أمر النساء أن يلتزمن بالحجاب الشرعي، و هو: «ستر الحرة ماعدا وجهها وكفيها»[٣٢] إلا أن الذي يبدو عليه بعض النساء المسلمات في الوقت الحاضر غير ذلك، فكثيرات هن النساء اللواتي تراهن يدرجن في مسارح الحياة المختلفة دون أن يلتزمن بما فرض الله عليهن من الحجاب ، وأقل من ذلك اليوم، ممن وقفن عند ما أمر به ديننا الحنيف في هذا الموضوع، غير أن عدد هؤلاء المستقيمات المستجيبات لأمر الله في هذا الباب يزداد – بفضل الله وحمده – يوما بعد يوم .

ومما يمكن أن تفسر به تلك الظاهرة، ظاهرة الإعراض عن الالتزام بالحجاب الشرعي من بعضهن، أنها تعود إلى ضعف فاعلية الروح الدينية في بعض النفوس المريضة و انتشار الجهل وسيطرة التقاليد، إلى جانب محاولات الاحتلال الذي كان - و لا شك - يدرك أن الأسرة الصالحة القوية من أهم الركائز التي تقوم عليها عملية بناء جيل قوي، محب لوطنه غيور على شخصيته وحقوقه، فحرص لذلك على إجهاض هذه العملية بمحاولة ضرب الأسرة والعمل على تفكيك عرى الأواصر بين أفرادها وإفساد أخلاق المرأة خليتها الأولى، و إفشال دورها في بناء المجتمع .

دعاة التجديد الزائف:

وكان بعض المستغربين من تلامذة المدرسة الأجنبية، وبعض المنبهرين بحضارة الغرب من دعاة التجديد الزائف يمالئون الاحتلال في مخططه ضد الأسرة المسلمة، فيدعون بدعوته إلى السفور و تمزيق الحجاب و المطالبة بالمساواة في الميراث، ورفض تعدد الزوجات، وحرية الطلاق وجعل العصمة بيد الرجل وغير ذلك .

و قد تصدى أعلام الإصلاح ورجال الفكر والأدب في العالم الإسلامي: مشرقه و مغربه من أمثال محمد عبده، محمد رشيد رضا، شكيب أرسلان، الرافعي، ابن باديس،

الإبراهيمي، مالك بن نبي، شوقي، حافظ، الرصافي، محمد العيد، و غيرهم .. لقد تصدى هؤلاء وأضرابهم إلى هذه المحاولات الهدامة، يسفهون أحلام أصحابها ويبصرون الأمة بأخطارها، و يوضحون الرأي الصائب في الموضوع ، فماذا عن موقف **ابن باديس** من ذلك؟

كان الشيخ يرى أن السفور نوعان :

١ ـ **سفور إسلامي** : و هو كشف المرأة وجهها دون شعرها و عنقها عند أمن الفتنة مع عدم إظهار الزينة [٣٤] .

٢ ـ **سفور إفرنجي** : و هو كشف الشعر والعنق و الأطراف مع التبرج و الزينة و ما إليها[٣٥] .

موقف الإمام من السفور : دعا **ابن باديس** بصدق وحرارة إلى مقاومة هذا النوع من السفور و منعه «**فعلينا ـ معشر المسلمين ـ أن نوجه قوتنا كلها إلى منع السفور الإفرنجي الذي قد طغى حتى على نساء أمراء الشرق المسلمين و وزرائه**» [٣٦] .

ويرى أن الحجاب: هو «**ستر الحرة مع وجهها وكفيها وجمع ثيابها عند الخروج بالتجلبب، و بما حرم من تطيب المرأة و قعقعة حليها عند الخروج و خلوتها بالأجنبي و اختلاط النساء بالرجال**». [٣٧]

ومما يمكن تأكيده في هذا الباب، أن الكاتب كان معتدلا ومرنا في موقفه من هذا الموضوع وكان مع التمسك بالحجاب الشرعي، بيد أنه كان يحتاط من أمر كشف الوجه فيراه مقبولا في الريف لأمن الفتنة وجريان العادة على ذلك هناك، ولا يراه كذلك في المدينة للخوف و الفساد [٣٨] .

موازنة :

وكان الإمام في موقفه هذا يراعي– على أية حال ـ ملابسات البيئة الزمان و المكان، و إن كان يختلف في ذلك مع بعض الكتاب الجزائريين من أمثال الشيخ **أبي يعلى الزواوي** و**الشيخ عبد الحفيظ بن الهاشمي** اللذين أبديا بعض التحرر في أمر الحجاب، ما أثار الرأي العام في المجتمع الجزائري [٣٩] .

وإن من يوازن بين رأي هذين الكاتبين في هذا الموضوع و رأي **ابن باديس** فيه، يقف

على اعتدال موقف الشيخ، الذي لا يكاد يغادره في جميع آرائه و مواقفه، و بذلك فهو يقف من الموضوع موقفا وسطا بين إفراط المتفرنجين الداعي إلى سلخ المرأة من جلدها، و بين تفريط الجامدين الذين أوصدوا الأبواب في وجهها، و إن كل ما ألصقه المغرضون بالإسلام من وصمات، إنما هو من تصرفات هؤلاء و أولئك [٤٠].

ويعلل بعض الباحثين تفريط هذين الطرفين في موضوع المرأة بدوافع الغريزة الجنسية [٤١]. و يرد الإمام بطريقة غير مباشرة على دعاة السفور المنادين بنزع الحجاب، موضحا أن هذا الحجاب لم يضر المرأة و إنما الذي أضرها و أخرها، إنما هو حجاب الجهل، و لذلك فعلى الذين يريدون أن ينهضوا بالمرأة أن يبادروا برفع «**حجاب الجهل عن عقلها**»[٤٢] قبل أن يطالبوا «**برفع حجاب الستر عن وجهها**» [٤٣].

موقف الإمام من الحجاب :

ويرى الإمام أن الحجاب المادي قد لا يؤدي الغرض منه إذا لم يلازمه حجاب من نوع آخر، حجاب يقوم على التربية و العلم و الفضيلة. ويستدل الشيخ على ذلك بما يجري في الواقع المعيش و بما يجري في التاريخ، فكثيرات هن اللواتي تراهن في الواقع متحجبات، و لكنهن غير ملتزمات في الوقت ذاته بحجاب الخلال الحميدة من طهر و عدم زينة، و عدم اختلاط، فماذا كانت النتيجة ؟

إن ذلك الحجاب الشكلي لم ينفع المرأة ولم يمنعها من التردي في مهاوي الرذيلة و الفساد، بينما يشهد التاريخ أن الملتزمات بالحجاب الشرعي من بنات المسلمين في عصر ازدهار الحضارة العربية الإسلامية لم يمنعهن ذلك من أخذ العلم و الإسهام في تقدم الأمة و الإنسانية .

وكان الإمام قد تصدى في هذا الإطار إلى محاولات المحتلين الرامية إلى إفساد المرأة الجزائرية، و من ثم إفساد الجيل الذي يشب في حجرها، وكان بعض المتفرنجين يقفون من وراء ذلك يغذون هذه المكائد و يستعجلون النتائج و يفترون على الله الكذب بترويجهم لما يذيعه بعض أساتذتهم من افتراءات في بعض الأوساط تزعم أن الإسلام قد حد من حرية المرأة، و من ثم وجبت بزعمهم المناداة بتحريرها.

وقد سبقت الإشارة في صدر هذه الدراسة إلى زيف هذه الدعاوى و تهافتها، و إن في ذلك– في ما نحسب– ما يكفي في توضيح الحال من ذاك المقال؛ و لذلك فإننا لا نقصد

الرجوع إلى الموضوع بهذه الإيماءة، و إنما نود بذلك فقط أن نطرح هذا السؤال: فمم يريد هؤلاء أن يحرروا المرأة ؟

فإذا كانوا يريدون أن يحرروها من دينها ولغتها وحضارتها، فهم و أسيادهم على ذلك ساهرون و على إنجازه متواطئون، و لكنهم في أمانيهم تلك بالخيبة و الخسران آيبون .

وإن كانوا يريدون بذلك تحريرها من الاحتلال و ما نجم عنه من جهل و جور و عدوان، فإن الطريق إلى ذلك قد وضعت أسس قواعده الحركة الوطنية بجميع فصائلها، و يسهر على قيادة موكب الأمة على جنبات هذا الطريق رجالها العاملون ولا يكون ذلك إلا على درب بناء الإنسان في روحه و في جسمه، في قلبه وفي عقله، بناء قويا عن طريق التربية و التعليم و التثقيف و التوجيه، و في هذه الغايات أولئك المستغربون زاهدون، و لمن يتطلع إليها من أبناء الأمة، أسيادهم يمانعون و يلاحقون، و يغرمون و يسجنون!

موقف **ابن باديس** من ظاهرة الاختلاط : و قد تصدى الإمام لبعض هؤلاء المستلبين، يفند مزاعمهم، و ممن وجه لهم من هؤلاء انتقاده المباشر في هذا المجال : **الطاهر الحداد** صاحب كتاب امرأتنا في الشريعة والمجتمع الذي أنكر عليه **ابن باديس** دعوته إلى الذهاب بالمرأة «**في تيار المدنية الغربية إلى ما يخرجها عن حدود دينها و وظيفة أنوثتها**»(٤٤) .

وإن خروج المرأة للقيام ببعض شؤونها في الحياة العامة، قد يجعلها تصطدم في وسط المجتمع بظاهرة الاختلاط . فماذا عليها أن تفعل إذن ؟ و ماذا عن موقف الشيخ من ذلك ؟

نبادر بالقول: إن ظاهرة الاختلاط بين النساء و الرجال أصبحت أو تكاد في الوقت الحاضر من الظواهر المتفشية في بعض البيئات الإسلامية، و قد وقف الكاتب عند هذه الظاهرة أكثر من مرة ، فأكد على ضرورة الالتزام بعدم الاختلاط، و جعل ذلك شرطا ضرورياً من شروط الحجاب الشرعي (٤٥).

كما تحدث الإمام في هذا المجال عن قضية أخرى تتصل بالمرأة و هي :

قضية الزواج : تحدث ابن باديس عن مشروعية الزواج و أهميته الاجتماعية، و أوضح في هذا الصدد أن التزوج و طلب النسل سنة، رغب فيه ديننا وحث عليه؛ ولذلك أبان الإمام أهمية الزواج في بناء الأسرة و تكثير سواد الأمة، و نهى عما نهى عنه الشرع من التبتل لما فيه من مخالفة الشرع و انقطاع النسل (٤٦).

قضية تعدد الزوجات : يعثر الباحث في آثار الإمام على إيماءات سريعة تفيد أنه كان

يعارض ما ينادي به بعض المستغربين من منع(تعدد الزوجات)، و قد جاء ذلك في جوابه عن سؤال وجهه له أحد الفرنسيين في الموضوع، فقال له «**إن الشريعة كل لا يجوز للمسلم تجزئته فتقبل كلها أو ترد كلها**»(٤٧).

ولم يَفُتْه في هذا المجال أن يلفت النظر إلى أمر هام آخر يتعلق بقضية الزواج، و هو ضرورة الأخذ بعنصر الاختيار في هذه العملية، و أن يكون أبرز جانب يعتمد في ذلك، إنما هو جانب الدين (٤٨) . و في ما يتصل بدفاعه عن حقوق المرأة و النهوض بها، لم يفته أن يدعو إلى العناية بالرعاية الاجتماعية لها و ذلك بحثه الهيئات المختصة على تقديم المساعدات المالية اللازمة للنساء الحوامل و المرضعات الفقيرات بما يخفف عليهن من الأعباء الأسرية (٤٩).

ويمكن أن يستخلص الدارس من خلال ما تقدم في هذه الكلمة تلك المكانة الرفيعة التي تحظى بها المرأة في الحياة، وذلك الدور الهام الذي يمكن أن تنهض به في بناء الأسرة وفي إصلاح المجتمع، و من ثم كانت العناية بها ماسة من حيث تربيتها و تعليمها و تثقيفها، لتتمكن من القيام بدورها الأسري أحسن قيام كأم ناهضة بحسن تربية الأولاد، و زوجة صالحة قائمة بحقوق الزوجية، و ربة بيت مقتصدة حسنة التدبير، و عضو نشيط في حركة المجتمع تعيش قضاياه، و تسهم في تطويره في حدود ما خلقت له، و لا يمكن أن تنهض أمة و تأخذ مكانتها بين الأمم، و يكون نصف أفرادها معطلة قواهم، مهدورة قدراتهم، و من ثم فإن من أهم ما يساعد على ترشيد قيام المرأة بدورها في المجتمع، و يصون لها شخصيتها و يحفظ عليها كرامتها و يحررها مما يحد من حريتها، إنما هو الدين و العلم و الفضيلة . و ليس من سبيل أمام بلوغها هذه المقاصد السامية أحسن من التربية و التعليم؛ و لهذا كانت عناية المصلحين في الجزائر و في غيرها من بلاد العالم الإسلامي بالمرأة كبيرة من هذه الناحية، فماذا عن إسهامات **ابن باديس** في ذلك ؟

المبحث الخامس:

منهجية ابن باديس في تعليم المرأة

الأسرة هي المدرسة الأولى :

يمكن القول: إن البيت هو المدرسة الأولى و المصنع الأساسي لتكوين الرجال [٥٠] ومن ثم كانت الأسرة الخلية الأولى في بناء المجتمع، وكانت المرأة العمود الفقري في بناء صرح هذه الأسرة لقيامها بوظيفتها الطبيعية و هي العملية التربوية، تسهر على تربية الأولاد، تعلمهم الفضيلة وتجنبهم الرذيلة، و تنمو على يديها قدراتهم الشعورية و العقلية، و عن طريقها يخطون أول خطواتهم إلى العالم الخارجي، و يشكلون من مفهومها للحياة مفهومهم البسيط لظواهرها، ولهذا فإن أثر الأسرة الصالحة عظيم على الأمة، ولا تفوز أمة بأسباب الارتقاء إلا إذا كان ذلك قد شمل أسرها، ومن ثم كانت العناية بالأمة تنطلق من العناية بالأسرة ومن خدم الأسرة، فقد خدم أمته [٥١] . مما يبرز أهمية التربية والتعليم في تكوين المرأة، ومن ثم دور المرأة المتعلمة في عملية النهوض بالمجتمع تربويا و تعليميا. وكان **ابن باديس** انطلاقا من هذه القناعات قد ركز في مشروعه التربوي على تربية المرأة وتعليمها، لتكون بذلك قادرة على النهوض بدورها الأسري والاجتماعي، و كان عمله في هذا الإطار مزدوجاً عملياً ونظرياً .

١ . إسهاماته في الميدان العملي :

وقد اضطلع بهذه المهمة في الميدان بتخصيصه درسا يوم الجمعة من كل أسبوع يلتقي فيه بالنساء اقتداء بالرسول الأعظم (محمد عليه الصلاة و السلام)، يعظهن و يعلمهن، و كان قد أقبل على هذه الخطوة بجرأة كبيرة، فقد استشار بعض أصحابه في الموضوع فأشاروا عليه بخطورته، و مع ذلك أقدم عليه متوكلاً على الله، مستعينا به، و كان لذلك أثره المبارك على المجتمع [٥٢]، كما سعى في هذا الإطار إلى تأسيس قسم في مدرسة التربية و التعليم التي كان يرأسها و أسقط على البنات دون البنين الرسوم المدرسية، تشجيعا لهن على الالتحاق بالمدرسة « **لتكون منهن بإذن الله المرأة المسلمة المتعلمة**» [٥٣] .

وقد تطلع في هذا المجال إلى أبعد من هذا، ففكر في إرسال بعثة طلابية من البنات إلى سورية، و راسل في هذا الشأن في أواخر الثلاثينات مدرسة (دوحة الأدب للبنات) بالشام

يعرض على إدارتها رغبته في إرسال بعثة طلابية من البنات للتعليم بها، و اتصل بأوليائهن لهذا الغرض و استطاع أن يقنعهم بالفكرة و هم بإنجازها لو لا اندلاع الحرب العالمية الثانية التي حالت بينه وبين تنفيذ هذه الأمنية (٥٤) .

وتمضي الأيام و يثور الشعب الجزائري و يجاهد و يضحي و ينتصر، و تكون سورية الشقيقة البلد العربي الوحيد، الذي استقبل في مدارسه و جامعاته، أول بعثة طلابية من البنات الجزائريات تذهب إلى الشرق في تاريخ الجزائر، و تتحقق بذلك ـ بمشيئة الله ـ أمنية الإمام الفقيد. و لعل هذه واحدة من إكرام الله عباده الصالحين المصلحين، بتحقيق بعض أمانيهم في خدمة الصالح العام بعد رحيلهم من عالم الشهادة إلى عالم الغيب .

٢ . إسهاماته في الحقل النظري :

قام الشيخ نظريا بدعوته العامة إلى تربية المرأة و تعليمها، كما خصص لذلك في مجلته (الشهاب) ركنا قارا بعنوان (رجال السلف و نساؤه) أوقفه على الترجمة لبعض الصحابة و التابعين، تحدث فيه عن بعض الصالحات من نساء السلف الصالح، و أوضح ما أتاحت لهن المعرفة من القيام بدورهن التربوي الأسري يقدم عن طريقهن النموذج الأمثل للقدوة الصالحة، و أحسب أن العنوان بمزاوجته بين النساء و الرجال يحتوي على دلالة موحية لما يهدف إليه الكاتب من وراء هذه السلسلة من التراجم و السير التي نشرها تحت هذا العنوان . وقد زاوج فيه بين الرجال و النساء، من خيرة الرجال و النساء، إنهم أعلام من الصحابة و التابعين، و بذلك كانوا نماذج أسوة وإقتداء . و في هذه الدلالة الدينية من وجوه الإيحاء ما يصور ما يجب أن تكون عليه صور هذه المشاركة و المزاوجة بين الجنسين، ما قد يزيد في عملية الإقناع بالفكرة التي يدعو إليها الكاتب بشأن تربية المرأة وتعليمها .

دعوة شجاعة في مجتمع محافظ : ويظهر أن **ابن باديس** كان يشعر بصعوبة هذه المهمة التي يضطلع بالدعوة إليها في مجتمع محافظ؛ و لذلك عمد للاستعانة في دعوته هذه ببعض النصوص القرآنية و الأحاديث الدينية، كما استعان ببعض البراهين المنطقية و الدلائل التاريخية لحمل الناس على الاقتناع بأفكاره و الاستجابة لدعوته، و قد اتصل شخصيا بأولياء البنات في هذا الشأن و حاول إقناعهم بإرسال بناتهم إلى (مدرسة التربية و التعليم) و قد نجح بعض النجاح، فالتحق بالمدرسة كوكبة من البنات، كما التحق بمدرسة (دار الحديث) بتلمسان، و (مدرسة الشبيبة الإسلامية الجزائرية) بالعاصمة مثل ذلك .

مشروعية تعليم المرأة :

ويستدل الإمام من التاريخ الإسلامي ومن سيرة الرسول صلى الله عليه و سلم على مشروعية تعليم المرأة، فقد كان بعض نساء المسلمين في صدر الإسلام يحسن الكتابة، ومن بعضهن، بعض أمهات المؤمنين : (عائشة و حفصة) عليهما رضوان الله، و منهن (الشفاء القرشية) رضي الله عنها، و قد أمرها الرسول عليه الصلاة و السلام أن تعلم (حفصة) رقية النملة [٥٥] كما علمتها الكتابة «**ألا تعلمين هذه- حفصة- رقية النملة كما علمتها الكتابة**» [٥٦] .

ويقف في هذا الباب عند الأثر الشائع في بعض الأوساط و الذي يشير إلى منع المرأة من الكتابة و هذا نصه «**لا تنزلوهن الغرف و لا تعلموهن الكتابة، و علموهن الغزل و سورة النور**» [٥٧] فيؤكد على ضعفه و يحذر منه وكان **مصطفى بن الخوجة** قد وقف أيضا هذا الموقف من هذا الحديث [٥٨]، كما وقف منه كذلك بعض الدارسين [٥٩] .

ويود الشيخ أن يزيد موضوع تعليم المرأة تأكيدا فيستدل على ذلك بالحديث الشريف الذي رواه **أبو سعيد الخدري** رضي الله عنه «قالت النساء للنبي صلى الله عليه و سلم غلبنا عليك الرجال، فاجعل لنا يوما من نفسك. فوعدهن يوما لقيهن فيه فوعظهن و أمرهن فكان في ما قال لهن: ما منكن امرأة تقدم ثلاثة من ولدها إلا كان لها حجاب من النار، فقالت امرأة : و اثنتين فقال : و اثنتين» [٦٠] رواه البخاري .

وانطلاقا من هذا الإيمان و اقتداء بسيرة معلم الإنسانية الأول محمد عليه الصلاة و السلام، أولى الإمام عناية كبيرة بتعليم المرأة، لاعتقاده أن التخلف الملاحظ في رجالنا إنما مرده إلى «**جهل الأمهات و قلة تدينهن**» [٦١] . و ذلك بسبب «**عدم التربية الإسلامية في البيوت**» [٦٢]، و ليس هناك من علاج ناجع أحسن من «**أن نكون أمهات دينيات و لا سبيل لذلك إلا بتعليم البنات تعليما دينيا و تربيتهن تربية إسلامية**» [٦٣].

تعليم المرأة على أساس دينها: و يظل الإمام يلح على هذه الفكرة، فيؤكد مرة أخرى على تعليم المرأة تعليما يقوم على أساس دينها و قوميتها «**علينا أن ننشر العلم بالقلم في أبنائنا و بناتنا، في رجالنا و نسائنا على أساس ديننا و قوميتنا**» [٦٤] و كان يركز في دعوته هذه إلى تعليم المرأة على ناحيتين اثنتين: الناحية الدينية و الناحية الاجتماعية بما يحفظ لها شخصيتها في إطار طبيعتها النسوية و يساعدها على القيام بوظيفتها

الاجتماعية الإنسانية، و هي حسن رعاية الأسرة و تربية الأولاد تربية صالحة لتكون منهم رجالا صالحين «فعلينا أن نعلمها كل ما تحتاج إليه للقيام بوظيفتها و تربيتها على الأخلاق النسوية التي تكون بها المرأة امرأة لا نصف رجل و نصف امرأة، فالتي تلد لنا رجلا يطير خير من التي تطير بنفسها» (٦٥) . وكان أعلام الإصلاح يشاركونه الرأي في توجهه، هذه الوجهة السليمة في تعليم البنت تعليما دينياً (٦٦) .

ويرى الشيخ أن هذا التعليم الديني للبنت بما يقوم عليه من تعليم العربية والإسلام، عظيم الأثر على الأمة لأن المرأة النابتة في تربة هذا التعليم تنشأ على حب دينها و أمتها، فينتقل منها ذلك إلى الناشئة فيشب عناصرها على ذلك الحب و ذلك الولاء للدين و للوطن و للأمة، فلا ينكرون أصلهم و لا يتنكرون لقومهم، فعلينا أن نربي المرأة على ذلك «لتلدا أولادا منا و لنا، يحفظون أمانة الأجيال الماضية للأجيال الآتية، ولا ينكرون أصلهم و إن أنكرهم العالم بأسره، ولا يتنكرون لأمتهم ولو تنكر لهم الناس أجمعون» (٦٧) .

ويحذر الشيخ ابن باديس بالمقابل من مخاطر التعليم الأجنبي، تلك التي لا تتوقف عواقبها الوخيمة على المرأة فحسب، و إنما تتجاوزها إلى الذرية و إلى المجتمع . وذلك بما تنقله المعلمة بذلك التعليم إلى عقول و نفوس الناشئة من سموم المسخ والنسخ تلك التي سرعان ما تتحول إلى نكران و تنكر للذات و للملة و للأرومة .

ويبلغ الأمر بالكاتب أمام هذا المصير الخطير، أن أصبح يفضل أن تبقى البنت جاهلة على أن تتعلم ذلك النوع من التعليم الذي حاول أن يمسخها ويؤدي بالنشء إلى تلك النهاية المؤسفة و ذلك العقوق النكير . «فالجاهلة التي تلد أبناء للأمة يعرفونها مثل أمهاتنا ـ عليهن الرحمة ـ خير من العالمة التي تلد للجزائر أبناء لا يعرفونها» (٦٨) .

المبحث السادس:

خطورة نوعية التعليم على شخصية المرأة

نبادر بالقول: إن الفكرة التي انتهى إليها هذا البحث في الحلقة السابقة، والتي يقرر فيها **ابن باديس** أن المرأة المتعلمة تعليما لا يربطها بأصول دينها وشخصية أمتها، قد يدفع بها ذلك النوع من التعليم إلى التنكر لأمتها، ومن ثمة فإن المرأة الجاهلة المحافظة على دينها المتمسكة بشخصيتها تكون أوفى منها لأمتها، إن هذه الفكرة ذاتها قد وردت عند الشيخ **عبد القادر المجاوي** في حديثه عن تعليم المرأة في كتابه اللمع على نظم البدع (٦٩).

كما أن الواقع شاهد آخر على ذلك، ذلك أنه بالرغم من مرور حوالي أربعين سنة على رحيل شبح الاحتلال الأجنبي من أرضنا، فإن آثاره في هذه الناحية وغيرها، ما تزال ماثلة في أذهان وسلوكيات بعض الأفراد إلى درجة أن المرء ويجد من يعتز بتلك الآثار و يدافع عنها. ومن شك في هذا، فيمكنه أن يختبر الواقع، فإن لسانه أفصح وأصدق من أي لسان. ومهما يكن من أمر، فإن هذه العناية بالمرأة قد كلفت **ابن باديس** أن يدفع الثمن بملاحقة المحتلين له واستعدائهم صنائعهم عليه وعرقلة جهوده، ولم يكتف أولئك المستلبون المسخرون للقيام بهذه المهمة المنوطة بكاهلهم، عن طريق نكوصهم و قعودهم عن مسايرة أهل الحق والعلم فحسب، و إنما انتهى بهم ضلالهم و مروقهم إلى أبعد من ذلك، بيد أن الإمام استمر في طريقه واعيا بفاعلية ما ينهض به في هذا المجال على الدين و على الأمة، ساهرا على بذل أقصى الجهود لإنجاح المقاصد، صابرا محتسبا على ما يلقى في سبيل ذلك من بلاء، و تبعات ...، وما كان من ذلك إلا أن انتصر الحق بتوفيق الله وعونه على أيدي المدافعين عنه، و زهق الباطل و هزم حزبه و باءت عصابته بالخسران المبين .

الخلاصة : و مما يمكن تسجيله تتويجا للحديث عن قضية المرأة في نهاية هذه الدراسة هو:

١ ـ يعتقد **ابن باديس** أن الحياة الإنسانية تقوم على قانون الزوجية التي تجعل كل طرف من الجنسين الرجل و المرأة مكملا للطرف الآخر حسبما يتميز به كل منهما من خصائص و وظائف خاصة مترتبة عن ذلك، فالرجل أقوى من المرأة معنويا وماديا، وذلك في جسمه وفي عقله : قوة العقل وقوة الإرادة وقوة العمل، مما يؤهله للقيام بدوره في قسم الحياة الخارجي، يكد ويجد، يسعى و يرتزق، يرعى ويذود . وحظ المرأة من ذلك أقل،

مما يخولها للقيام بما يناسب طبيعتها في قسم الحياة الداخلي: رعاية شؤون الأسرة، وتوعية الأولاد والقيام بالحقوق الزوجية، إلى جانب قيامها ببعض الواجبات العامة في حدود ما يفرضه الشرع عليها من صون و عدم زينة و عدم اختلاط.

٢- من منظور الدين الإسلامي الذي حرّرها وكرّمها و نعّمها، و أعاد لها إنسانيتها وأهليتها، فركز حديثه عليها من هذه الناحية، داعيا إلى تربيتها وتعليمها، تعليما يحفظ عليها شخصيتها ويصون لها كرامتها و يساعدها على القيام بواجبها الاجتماعي. فاستطاع بذلك أن يوائم في دعوته هذه ما بين تعاليم الإسلام، وبين ملابسات البيئة ومتطلبات العصر، و في ذلك إصلاح لها و إصلاح للأجيال التي تتربى على يديها، مستنكرا ما يروج له بعض المتفرنجين من دفع المرأة المسلمة على طريق تقليد المرأة الأوربية في قضية تعدد الزوجات و المساواة في الميراث و في السفور و غير ذلك.

وأكتفي بالإشارة في هذا الصدد، إلى أن بعض المنصفين من الغربيين أنفسهم قد رأوا صلاحية ما يراه الإسلام في هذه القضايا.(٧٠)

٣ - جاء حديث ابن باديس عن المرأة، مبثوثا في مواطن كثيرة من آثاره، ويكاد لا يخرج عن هذه الوتيرة لو لم يخص هذا الموضوع بعمل كامل من أعماله، وكان محاضرة، كان قد ألقاها بنادي الترقي بدعوة من إدارته أثناء إقامته بالعاصمة في صائفة ١٩٢٩، وكان موضوعها حول المرأة (حالها و واجباتها و حقوقها)(٧١) وكانت بعنوان (الرجل المسلم الجزائري).

ولعله يكون قد قام بها ليرد على بعض المستغربين الذين ارتفعت أصواتهم يومئذ بالجزائر مطالبة بتحرير المرأة. و قد جاء فيها من الأفكار ما يدل على ذلك، من مثل دعوته إلى العناية بالرجل إلى جانب العناية بالمرأة، الدعوة إلى رفع حجاب الجهل عن المرأة قبل رفع حجاب الستر عنها، التأكيد على تعليم المرأة تعليما دينيا، التركيز على وظيفتها الأسرية. وواضح أن هذه الأفكار توحي بأن صاحبها يقف موقفا مقابلا لما كان ينادي به حول الموضوع الواقفون في الضفة الأخرى.

وقد قسم الإمام محاضرته إلى قسمين:

أدار الحديث في القسم الأول عن الرجل، دوره ومكانته وقوامته، و تحدث في القسم الثاني عن المرأة، دورها، مكانتها، حجابها، تربيتها، وتعليمها، فعالج مجملا مركزا معظم

ما كان قد تطرق إليه مما يتصل بالمرأة في بقية أعماله موزعا مفصلا، وهو بهذه القسمة العادلة والمزاوجة الواضحة بين الرجل و المرأة في هذا الحديث، يدل على أنه يعتقد أن مشكلة المرأة و الرجل واحدة.

٤ ـ يمكن القول إن أبرز ما تتسم به مواقف ابن باديس وكتاباته في موضوع المرأة، هذه الطوابع :

الحكمة و الاعتدال في الطرح، و الرصانة والتروي في المناقشة، والصدق والذكاء في تشخيص الداء وفي وصف الدواء . مما يميز منهجه العام في جميع مواقفه و أعماله، فهو يحافظ في معظم الأحوال على موضوعيته واعتداله ووسطيته، فكان في هذا الموضوع كعهده في غيره، بعيدا عن الإفراط و التفريط، إفراط المستلبين وتفريط الجامدين، فكان بذلك من بين أبرز مفكري تيار الاعتدال و الوسطية و الروح العلمية في البلاد العربية الإسلامية .

الهوامش

(١) سورة الذاريات الآية : ٤٩.

(٢) ابن باديس حياته و آثاره، ج ٥ : ٥٣ إعداد د. عمار طالبي، دار اليقظة العربية دمشق ١٩٦٨، و ينظر بطرس البستاني : أدب العرب في الجاهلية و صدر الإسلام: ص٢٣، بيروت ١٩٨٩

(٣) التكوير: الآية ٨/ ٩.

(٤) ابن باديس حياته و آثاره مصدر سابق، ج٤ : ص١١٧.

(٥) د. فهمي جدعان : أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث ص: ٤٥٩، و ما بعدها ط٢، بيروت ١٩٨١.

(٦) ALI MERAD: Le réformisme musulman en Algérie P 317.

(٧) آثار الإمام ابن باديس ٣ : ٦٢ – منشورات وزارة الشؤون الدينية الجزائر ١٩٨١.

(٨) محمد الغزالي : الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر، ص ٧٢، الجزائر١٩٨٨.

(٩) د. فهمي جدعان : أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث ص ٤٥.

(١٠) د. محمد ناصر : المقالة الصحفية ج١، ص ٢٢٩ الجزائر ١٩٧٨.

(١١) ابن باديس حياته و آثاره ج١، ص٢٠، مصدر سابق و ينظر حمزة بوكوشة : مجلة الثقافة ع١٠ (رجب ١٣٩٢ / ١٩٧٢) ص ١١.

(١٢) مطبعة فونتانا، الجزائر ١٨٩٥.

(١٣) مطبعة فونتانا، الجزائر١٩٠٧.

(١٤) ابن باديس حياته و آثاره، ج ٤، ص ١١٦، م.س.

(١٥) م. ن، ص١١٧.

(١٦) ينظر آثار الإمام ج٣، ص٣٥ م.س.

(١٧-١٨-١٩-٢٠) ابن باديس حياته و آثاره، ج٢، ص٢٠٩.

(٢١) ينظر مالك بن نبي : شروط النهضة ص١٧٩-١٨٢. بيروت ١٩٦٩.

(٢٢) ابن باديس حياته و آثاره، ج٢، ص٤٧٢.

(٢٣) سورة النساء : الآية ٣٤.

(٢٤) آثار الإمام، ج ٣، ص٥٣ . و ينظر م . ن، ص ٦١.

(٢٥-٢٦) ابن باديس حياته و آثاره، ج٢ ، ص ٤٤ - و ينظر م . س، ج٣، ص٥١٣.

(٢٧-٢٨) م . س، ج٢، ص٢٢٢.

(٢٩) م . س، ج ٣، ص٤٦٩.

(٣٠) ابن باديس حياته و آثاره، ج ٣ ، ص٤٦٩.

(٣١) محمد كامل الخطيب : القديم و الجديد، ص ٥١٩.

(٣٢) الشهاب : من (ج ٦ م ٦ إلى ج ٢١ م ٦) (من صفر - شعبان ١٣٤٩، إلى جويلية ١٩٣٠ - جانفي ١٩٣١) من (٣٦١ - ٧٣٤).

(٣٣) آثار الإمام ج ١، ص١٢٧.

(٣٤-٣٥-٣٦) ابن باديس حياته وآثاره، ج٢، ص٢٠٧.

(٣٧) آثار الإمام، ج ١، ص١٢٧.

(٣٨) ابن باديس حياته وآثاره، ج٤ ، ص٢٠٧. وينظر آثار الإمام، ج ١ ، ص ٤٤١.

(٣٩) د. محمد ناصر : المقالة الصحفية الجزائرية، ج ١ ، ص٢٤٥. الجزائر ١٩٧٨.
(٤٠) آثار الإمام، ج ٦، ص٢٣.
(٤١) مالك بن نبي : شروط النهضة ص١٧٥.
(٤٢ـ٤٣ـ٤٤) ابن باديس حياته وآثاره، ج٣، ص٤٦٤ـ٤٦٥ـ٤٧٥.
(٤٥) آثار الإمام، ج ١، ص١٢٧. و ينظر، ج٢، ص١٥٨.
(٤٦ـ٤٧ـ٤٨) ابن باديس حياته و آثاره، ج ١، ص٤٩٤. ج٣، ص ٣٥٧. ج ١، ص٤٩٥.
(٤٩) آثار الإمام، ج٥، ص١٩٣.
(٥٠) ابن باديس حياته وآثاره، ج ٤، ص ٢٠١.
(٥١) آثار الإمام، ج ١، ص٣٧٣.
(٥٢) محمد الصالح بن عتيق : أحداث و مواقف في مجال الدعوة الإصلاحية و الحركة الوطنية بالجزائر، ص ١٦٨.
(٥٣) ابن باديس حياته وآثاره، ج ٣، ص١٨٦.
(٥٤) وقد سمعت هذه الرواية من الشيخ محمد الصالح رمضان ببيته بتاريخ ٢٥ مارس ١٩٩٥.
(٥٥) النمل : بثور صغار مع ورم يسير ... ينظر الجوهري : الصحاح، ج ٥ ، ص١٨٣٦.
(٥٦ـ٥٧) آثار الإمام، ج ٣، ص ٦١ـ٦٢.
(٥٨) الاكتراث في حقوق الإناث، ص٨٣.
(٥٩) د. فهمي جدعان : أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث ص ٤٦١.
(٦٠ـ٦١ـ٦٢ـ٦٣) آثار الإمام، ج٢ ، ص١٥٧. ج٣ ، ص٨٨ـ٨٩. ج٢، ص١٦١.
(٦٤) ابن باديس حياته وآثاره، ج ٣، ص٤٦٩ ، و ينظر مالك بن نبي شروط النهضة ص ١٧٦.
(٦٥) الإبراهيمي : عيون البصائر ص٣٢٤، ٤٢٨ . وينظر: محمد صالح المراكشي، تفكير محمد رشيد رضا من خلال مجلة المنار ص٣٤٨، (١٨٩٨ـ١٩٣٥) الجزائر ١٩٨٥.
(٦٦ـ٦٧) ابن باديس حياته وآثاره، ج ٣ ، ص٤٦٩ـ٤٧٠ ، وينظر محمد عبده : الأعمال الكاملة، ج٢، ص٧٦.